رِيخَارْتُ إِرْنِسْتْ

بِقَلَمِ ثابِتِ عِيدٍ

فِي الرَّابِعِ مِنْ يَنَايِرَ سَنَةَ 2006م بَعَثْتُ بِرِسَالَةٍ أَلْكْتُرونِيَّةٍ إِلَى البروفيسورِ ريخارتَ (أَوْ ريتشاردَ) إِرنستَ *Richard Ernst* أُبلغتُهُ فِيهَا عَنْ رَغبَتِي فِي كِتَابَةِ دِرَاسَةٍ قَصِيرَةٍ عَنهُ. لَكِنَّهُ لَم يَردَّ عَلَيَّ! فَعادوتُ الكِتابَةَ إِلَيهِ فِي الثّالثَ عشرَ مِنْ يَنايرَ سَنَةَ ٢٠٠٦م. فِي السَّادسَ عشرَ من يَنايرَ تلقيّتُ منه ردًّا، يُعبّرُ فيه عن استعدادِهِ لمقابلتي وإجراءِ حوارٍ مَعِي. أَسعدَني جدًّا ردَّ فعلِهِ الإيجابيَّ هَذَا.

كُنتُ مشغولًا طوالَ شهرَيْ ديسمبرَ ٢٠٠٥م، ويناير ٢٠٠٦م، بمشاكلِ الانتقالِ من برنامجِ «النّاشرِ الصّحفيِّ» إِلى برنامجِ «أدوبة إِنديساين». فَضلًا عن دِراستي عن البروفيسورِ رولفَ تسينكرناجلَ *Rolf Zinkernagel* صاحبِ نوبلِ الطِّبِّ سَنَةَ ١٩٩٩م. يقينًا وَاجهتُ مشاكلَ جمّةً فِي فهمِ خلفيَّاتِ فوزِ تسينكرناجلَ بنوبلِ الطِّبِّ، لِأَنَّ مُصطلحاتِ عِلمِ الْمَنَاعَةِ كَانَتْ جديدةً عليَّ.

عِندَمَا قَرَّرتُ تقديمَ البروفيسورِ ريتشاردَ إِرنستَ فِي كتَابِي: «زيورخُ أحسنُ مدينةٍ فِي العالمِ»، كأحدِ علماءِ جامعةِ زيورخَ الفيدراليَّةِ الحَاصلينَ عَلَى جائزةِ نوبلَ، كَانَ عَلَيَّ أَنْ اطَّلَعَ عَلَى بَعْضِ مَا كُتِبَ عَنهُ. لَكِنِّي واجهتُ صعوباتٍ مُشَابِهَةً لِفَهْمِ طبيعةِ تخصُّصِهِ. تَذَكَّرتُ قِصَّتِي مَعَ كورتَ ڤويتريخَ الَّذِي تَفَهَّمَ جَهلِي، وَرَاحَ يَشرحُ لِي اكتشافاتِهِ الكيمياويَّةَ بِأسلوبٍ مُبسَّطٍ مَفهومٍ.

أَتَّصلتُ بِريتشاردَ إِرنستَ يَومَ الثّلاثاءِ الموافقَ الرّابعَ عشرَ مِنْ شَهْرِ مَارسَ سَنَةَ ٢٠٠٦م فِي منزلِهِ. ذَكَّرتُهُ بِرِسَالَتِي الإِلكترونيَّةِ. قَالَ: «لاأَتذكّرُ»!! قلتُ: «لا بأسَ»!! تبادلنَا أطرافَ الحديثِ عنْ طبيعةِ تخصُّصِهِ، وَصعوبةِ فَهمِ مَا يَقومُ بِهِ مِنْ أبحاثٍ ودراساتٍ متخصّصةٍ بالنّسبةِ للمثقّفِ غيرِ المتخصّصِ. فُوجئتُ بتواضعِهِ، وتسامحِهِ، وَتَفَهُّمِهِ، وَرحابةِ صدرِهِ. سألتُهُ إن كانَ لا يزالُ يمارسُ أبحاثَهُ فِي معاملِ جامعةِ زيورخَ الفيدراليّةِ. قَالَ: «لا. أنا متقاعدٌ الآنَ. الجامعةُ منحتني مَكتبًا بعدَ التّقاعدِ، حيثُ أكتفي بإلقاءِ المحاضراتِ». ثمَّ أضافَ: «كورتُ ڤويتريخَ مازالَ يعملُ بنشاطٍ ويبحثُ ويؤلِّفُ، برغمِ وصولِهِ أيضًا إلى سنِّ التّقاعدِ. أمّا أنَا، فقدِ اكتفيتُ بإلقاءِ المحاضراتِ». سألتُ: «متى أستطيعُ مقابلتَكَ؟» ردَّ: «يومَ الجمعةِ القادمَ الموافقَ السَّابعَ عَشَرَ مِنْ مَارِسَ». قُلتُ: «هَذَا مَوعدٌ جيّدٌ. مَتَى؟» قَالَ: «حَدِّدْ أَنْتَ السَّاعَةَ الَّتِي تُنَاسِبُكَ بَعْدَ الظُّهرِ»! قُلتُ: «بوسعي أن أكونَ فِي مكتبك فِي السَّاعةِ الثّانيةِ بعدَ الظُّهرِ». قَالَ: «إِذًا سأكونُ فِي انتظارِكَ». ثمّ شرحَ لِي كيفيّةَ الوصولِ إِلى مكتبِهِ فِي مَبَاني جامعةِ زيورخَ الفيدراليّةِ فِي منطقةِ هونجربرجَ.

كُنتُ سَعِيدًا جِدًّا بهذهِ المناسبةِ للتَّعرُّفِ إِلَى عَالِمٍ سويسريٍّ كَبير، حَصلَ عَلَى جائزةِ نوبلَ فِي الكيميَاءِ، تَقديرًا لمجهوداتِهِ وإِسهامَاتِهِ العِلميَّةِ. قَرأتُ دراسةً عنْهُ، وَسيرةً مُختصرةً لحياتِهِ. لَكِنِّي لَمْ أفهمِ المصطلحاتِ الفَنِّيَّةَ الكثيرةَ الوَاردةَ فِي هَذَيْنِ المقَالينِ.

فِي الموعِدِ المحدّدِ - يومَ الجمعةِ الموافقَ السَّابعَ عشرَ من مارسَ سنةَ ٢٠٠٦م - ذهبتُ مبكِّرًا إِلى منطقةِ هونجربرجَ فِي أطرافِ مدينةِ زيورخَ. تأمَّلتُ العددَ الكبيرَ من المباني التّابعةِ لجامعةِ زيورخَ الفيدراليّةِ هناكَ. مشهدٌ أثارَ إعجابي بنهضةِ زيورخَ العلميّةِ، وحسرتي على تخلّفِ العربِ وتقهقرِ حضارتِهم. جلستُ فِي «كافتيريا» مجاورةٍ للمبنى الّذي يعملُ فيه البروفيسورُ ريتشاردُ إِرنستَ. احتسيتُ فنجانًا منَ القهوةِ. سجّلتُ أكثرَ من عشرةِ أسئلةٍ لحواري معَ البروفيسورِ ريتشاردَ إِرنستَ.

فِي السَّاعةِ الثّانيةِ بعدَ الظّهرِ كنتُ أطرقُ بابَ مكتبِ البروفيسورِ ريتشاردَ إِرنستَ فِي الدّورِ *E* الحجرةِ رقمِ ٢١٧. استقبلني إِرنستُ ببشاشةٍ وترحابٍ. شعرتُ أنّني أمامَ عالمٍ هادئِ الطّبعِ، مُرتّبِ الفكرِ، وسيمِ الهيئةِ، طويلِ القامةِ نسبيًّا، يتمتّعُ بصحّةٍ جيّدةٍ. قلتُ بعدَ التّحيّةِ: «هلْ تأذنُ لِي بالجلوسِ؟» قالَ: «لابدَّ أن تجلس»! سألَ: «هلَ تشربُ شَايًا أمْ قهوةً؟» قلتُ: «قهوةً من فضلِكَ!» لمحتُ ماكينةَ قهوةٍ فِي ركنِ مكتبِهِ، مُتوسِّطِ المساحةِ. ضغطَ عَلى زرِّ الماكينةِ. ثمَّ قدّمَ لي فنجانًا منَ القهوةِ، تناولتُهُ شَاكرًا. لفتَ نَظَرِي أنَاقةُ مكتبِهِ، ونظامُهُ المحكمُ. الحجرةُ مستطيلةُ الشّكلِ. تُغطّي أرففُ الكتبِ جَانِبَيْهَا. هناكَ مائدةٌ مستطيلةٌ فِي الوسطِ، جلسنَا فِي طرفِهَا المجاورِ للبَابِ. جلسَ ريتشاردُ إِرنست قبالي ببساطةٍ وتواضعٍ. ورحنَا نبدأُ حديثَنَا.

لَا أَعرِفُ لِمَاذَا قرّرتُ أن أخوضَ حِوَارِي مَعَ إِرنستَ فِي أمورِ الدِّينِ وَالخلقِ، وَالحياةِ والموتِ، والدُّنيَا وَالآخرةِ. هَل استشعرتُ أَنَّ هذهِ الموضوعاتِ تشغلُهُ هُوَ أَيضًا الآنَ؟ أمْ حَدستُ أنّه توصَّلَ إِلَى نتائجَ جديدةٍ، وآراءٍ مُثيرَةٍ، أثارتْ فضولي لسماعِهَا؟ لَا أعرفُ. قلتُ لإِرنستَ: «سجّلتُ قبلَ قدومي إِليكَ أكثرَ من عشرةِ أسئلةٍ. لا أعرفُ هلْ سيسمحُ وقتُكَ، ويتّسعُ صدرُكَ اليومَ للإِجابةِ عَليهَا جَميعًا، أم تفضّلُ أنْ أبعثهَا إِليكَ بالبريدِ الإِلكترونيِّ، وَتَرُدَّ عَليهَا أَيضًا بالبريدِ الإِلكترونيِّ؟ هَلْ أنتَ مثلُ ڤويتريخَ تمقتُ البريدَ الإِلكترونيَّ؟« قَالَ إِرنستُ ضَاحِكًا: «ڤويتريخُ يكرهُ فِعْلًا البريدَ الإِلكترونيَّ جِدًّا. أَنَا اسْتخدمُهُ. لَكِنْ لماذَا لا نُنهي كلَّ شَيءٍ فِي هَذِهِ الجلسةِ. أَنَا أُجيبُ عَلَى الأسئلةِ، وَأنتَ تُسَجِّلُ الإِجابةَ بِجهازِ تسجيلٍ، أَوْ بالكتابةِ». قُلتُ: «لا مَانِعَ مِنْ هَذَا».

قلتُ لإِرنستَ: «بعدَ أنْ وصلتَ إِلَى هَذِهِ المرتبةِ العلميَّةِ الرَّفيعةِ، وَحصلتَ عَلَى جَائِزَةِ نوبلَ، هَلْ تَوَصَّلْتَ إِلَى أَسْرارِ الوُجُودِ؟ أَوْ بعبارةٍ أخرَى هلْ تعرفُ الآنَ لماذَا خلقنَا اللَّهُ، وَمَا هِيَ الحِكمةُ مِنْ وُجودِنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؟» يَبْدُو أَنَّ إِرْنِسْتَ لَمْ يَتوقّعْ أَنْ أبدأَ حَديثِي مَعَهُ بسؤالٍ كَهَذَا. فَكَّرَ قَليلًا، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سُؤَالٌ صَعبٌ. أُصَارِحُكَ بِأَنِّي أطرحُهُ يوميًّا عَلَى نَفْسِي، دُون جَدوَى. فِي الصَّباحِ تختلجُنِي إِجَابَةٌ، وَفِي المساءِ تَظْهرُ إِجَابَةٌ أُخرَى. لَكِنَّ اليقينَ غَائبٌ». قلتُ: «العقلُ هُوَ مِنْ أعظمِ مخلوقاتِ اللَّهِ. العِلْمُ الحديثُ حقّقَ إِنجازاتٍ كثيرةً. لَكِنَّ العقلَ الإِنسانيَّ لَا يستطيعُ إِدراكَ كُلِّ شَيْءٍ. هُنَاكَ حُدودٌ وَاضِحَةٌ. أَلَا تُزعجُكَ هَذِهِ الحَقيقةُ؟» رَدَّ: «بالطَّبعِ لَا يمكنُ لِلعقلِ أَنْ يُدْرِكَ كُلَّ شَيْءٍ. هَذِهِ حقيقةٌ لَا مَفرَّ مِنْهَا. نَحْنُ نَبحثُ، وَنفعلُ مَا نَستطيعُ. لَكِنَّ هَذِهِ الحُدودَ موجودةٌ وَعَلَيْنَا أَنْ نَقبلَهَا».

سَأَلتُ إِرنستَ عَنْ عَلَاقَتِهِ بِالعالمِ العَربيِّ. رَدَّ: «زُرتُ مِصْرَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ. تَنحصرُ عَلَاقَتِي هُنَاكَ بِزُملائِي مِنَ العلماءِ المصريِّينَ. أَلقيتُ مُحَاضَراتٍ فِي جَامِعَتَيْ حلوانَ، والقاهرةِ، والجامعةِ الأمريكيَّةِ فِي القاهرةِ. دُعيتُ مرَّةً إِلى جامعةِ الدّوحةِ فِي قطرَ، لكنْ لم أتمكنْ من تلبيةِ الدَّعوةِ. فِي المملكةِ السُّعوديَّةِ دعتني شركةُ البترولِ "أرامكو"، لإِلقاءِ محاضرةٍ فِي مدينةِ الظَّهْرانِ». قُلتُ: «هَلْ يفهمُ العلماءُ فِي مِصْرَ مثلًا مَا تَقومُ بِهِ مِنْ أبحاثٍ علميَّةٍ متطوِّرةٍ؟» قَالَ: «نَعَمْ. هُمْ يتابعونَ مَا يحدثُ مِن اكتشافاتٍ جَيِّدًا». تَعَجَّبْتُ: «كيفَ وَظروفُ البحثِ العِلْمِيِّ مُتَرَدِّيةٌ جِدًّا فِي مِصْرَ؟» قَالَ: «هَذَا صَحيحٌ. فِي مَجَالِ تَخصُّصِي لَابُدَّ من تَوَفُّرِ مَعَامِلَ متطوِّرةٍ جِدًّا. هَذَا غَيرُ مَوْجُودٍ فِي مِصْرَ. أَحْوالُ العلَمَاءِ سَيِّئَةٌ جِدًّا فِي مِصْرَ. لَكِنَّ بَعْضَهُمْ يَسْعَى إِلَى عَمَلِ زِيَارَاتٍ علميَّةٍ قَصيرَةٍ إِلَى جَامِعَةٍ غَربيَّةٍ، يُجري فِيهَا أَبحَاثَهُ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى وَطَنِهِ». قُلتُ: «مَاذَا يُجدِي هَذَا؟» قَالَ: «إِنْ أَرَادَ أَحَدُهُمْ نَشْرَ مَقَالٍ علْمِيٍّ فِي مَجَلَّةٍ علْمِيَّةٍ مَرمُوقَةٍ، لَابُدَّ أَنْ يَفْعَلَ هَذَا».

صَمتَ إِرنستُ قَليلًا، ثُمَّ قَالَ: «لَكِنِّي مُرتَبِطٌ بِمِصْرَ مِنْ خِلَالِ بِنْتِ شَقِيقَتِي». قُلتُ مُتَعَجِّبًا: «كَيْفَ؟» قَالَ: «هِيَ أَحَبَّتْ

فَنَّانًا مِصْرِيًّا، تَزَوَّجَتْهُ، وَأَنْجَبَتْ مِنْهُ أَطْفَالًا، وتعيشُ الآنَ معَهُ في القاهرة. لَقَدِ اشْتَرَيَا مُؤَخَّرًا بَيتًا يُطِلُّ عَلَى نَهْرِ النِّيلِ. يَبدُو أَنَّهَا سَعِيدَةٌ مَعَهُ».

قلتُ لإرنستَ: «مِصْرُ تَمُرُّ بِظُرُوفٍ صَعْبَةٍ الآنَ». قَالَ: «هَذَا طَبِيعِيٌّ. كَيفَ تَسْتَطِيعُ إِعَاشَةَ ثَلَاثِينَ مِليُونًا في شَرِيطٍ ضَيِّقٍ؟» قُلْتُ: «الْآنَ هُمْ أَكْثَرُ مِنْ سَبعِينَ مِليُونًا (سَنَةَ 2006م)». قَالَ: «هَذَا عَدَدٌ ضَخْمٌ». قُلْتُ: «يُمكِنُ تَحويلُ هَذَا إِلَى مِيزَةٍ، بَدَلًا مِنِ اعتبارِهِ نُقطَةَ ضَعْفٍ». قَالَ: «هُنَاكَ مِصْرِيُّونَ كثيرونَ في دُولِ الخَلِيجِ. لَكِنْ لَا أَعرِفُ لِماذَا لَا يُوجَدُ عِنْدَنَا هُنَا في سُويسْرَا عُمَّالٌ مصريُّونَ. عَدَدُ المصريِّينَ في سُوِيسْرَا قَلِيلٌ جِدًّا».

أردتُ معرفةَ أَهَمِّيَّةِ جَائِزَةِ نُوبِلَ بِالنِّسْبَةِ لِريتشَارِدَ إِرْنِسْتَ. قُلْتُ: «هَلْ تَوَقَّعتَ الْفَوْزَ بنوبلَ؟» قَالَ: «لَمْ أَكُنْ أُفَكِّرُ في الْجَوائِزِ في ذَلِكَ الْوقتِ. كَانَ جُهْدِي كُلُّهُ مُنْصَبًّا على العملِ». سَأَلْتُ: «هَلْ أَسعدتْكَ الجَائِزَةُ؟» قَالَ: «بِالطَّبْعِ. هَذِهِ جَائِزَةٌ دَولِيَّةٌ كَبِيرَةٌ». قُلْتُ: «إِلَى أَيِّ حَدٍّ غَيَّرتِ الجَائِزَةُ مِنْ حَيَاتِكَ؟» قَالَ: «بِالنِّسْبَةِ لِلْعَمَلِ لَمْ تُغَيِّرْ شَيْئًا. فقدْ عَمِلْتُ بَعدَهَا كَمَا كُنْتُ أعملُ قَبْلَهَا. لَكِنَّهَا سَهَّلَتْ عَلَيَّ أُمُورًا كَثِيرَةً، خَاصَّةً بَعدَ تَقَاعُدِي». قُلْتُ: «كَيْفَ؟» قَالَ: «كُنْتُ قَبلَ شَهْرٍ في الپَاكستان، حَيْثُ أَمضيتُ ثَلَاثَةَ أربَاعِ سَاعَةٍ مَعَ الرَّئِيسِ الپَاكستَانِيِّ مشرّفٍ. لَوْلَا نُوبلُ، لَمَا أُتيحَتْ لِي هَذِهِ الفُرصَةُ!»

سألتُ إرنستَ: «هَلْ تَعَرَّفْتَ إِلَى العَالِمِ الپاكستَانِيِّ عبدِ السَّلَامِ، صَاحِبِ نُوبلِ الفيزياءِ سَنَةَ ١٩٧٩م؟» قَالَ: «رَاسلتُهُ. لَكِنْ لَمْ أتشرَّفْ بالتَّعرُّفِ إِلَيْهِ شخصيًّا».

عُدتُ إلى مسألةِ العلمِ والدِّينِ، قَائلًا: «باعتبارك عالمًا في الكيمياءِ والفيزياءِ تبحثُ دائمًا في الطَّبيعةِ والخلقِ. كَمْ مِنْ أسرارِ الخلقِ انكشفتْ لكَ؟» قَالَ: «أَنَا أُفَضِّلُ عدمَ خلطِ العلمِ بالدِّينِ. للعلمِ مجالُهُ، وللدِّينِ مجالُهُ، وَهُمَا لَا يَتَنَاقضَانِ. عندمَا أبحثُ في مسائلَ علميَّةٍ، أُفَضِّلُ استخدامَ لفظِ الطَّبيعةِ عَنْ لفظِ الْخَلقِ. الْعِلْمُ الْحَديثُ حَقَّقَ إِنجازَاتٍ جَبَّارَةً في العُقُودِ الْأَخيرَةِ. صِرْنَا نَفهَمُ كَثِيرًا مِنَ الأُمُورِ الَّتِي لَمْ نَكُنْ نَفهمُهَا مِنْ قَبْلُ. لَكِنَّا لَمْ نَصِلْ بَعْدُ إِلَى المرحلَةِ الَّتِي نَستطيعُ أَنْ نَقُولَ فيهَا أَوْ نزعمَ أَنَّنَا نَجحنَا في اكْتِشَافِ كُلِّ أَسْرَارِ الطَّبيعَةِ».

قلتُ: «هَانْسُ كُينْجَ، كَبِيرُ عُلَمَاءِ اللَّاهوتِ السُّويسريِّينَ، قَالَ لِي مَرَّةً إِنَّ عَدَدَ المتديِّنِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الدِّينِ في أُوروبَّا يَتَرَاجعُ وَيَتَنَاقَصُ، في الوَقْتِ الَّذِي يزدادُ فِيهِ عددُ المؤمنينَ منْ علماءِ الطَّبيعةِ. هَلْ تَتَّفِقُ مَعَهُ؟» قَالَ: «إِذَا كَانَ مَعْنَى التَّدَيُّنِ هُنَا هُوَ الفَهْمُ السَّاذِجُ لِلدِّينِ، فَأَنَا لَا أُوَافِقُهُ بِالطَّبْعِ. عَلَيْنَا أَوَّلًا تحديدُ مَعْنَى التَّدَيُّنِ».

أردتُ معرفةَ رَأْيِ إرنستَ مِنَ الرِّيَاضَةِ. سَأَلْتُ: «كُورتُ ڤويتريخُ يُمارِسُ الرِّيَاضَةَ بحَمَاسٍ بَالِغٍ. هَلْ تُحِبُّ أَيضًا الرِّيَاضَةَ وَتُمارِسُهَا؟» رَدَّ: «أنا أَمقتُ الرِّيَاضَةَ العَنِيفَةَ، أَوِ الرِّيَاضَةَ الَّتِي لَا تَعرِفُ إِلَّا الأَرْقَامَ القِيَاسِيَّةَ. أُحِبُّ الْحَرَكَةَ، وَالرِّيَاضَةَ غَيْرَ المبالغِ فِيهَا. كُنتُ أُمَارِسُ السِّبَاحَةَ، وَالْمَشْيَ، بانتظامٍ. الآنَ أصابَنِي الْكَسَلُ قليلًا». قُلْتُ: «هَلْ توقَّفْتَ عَنْ مُمَارَسَةِ رِيَاضَةِ الْمَشْيِ؟» قَالَ: «بَلْ مَازِلْتُ أُمَارِسُهَا، لَكِنْ أَقَلَّ مِنْ قَبْلُ».

سَأَلْتُ إِرْنِسْتَ: «قَرَأْتُ في سِيرَتِكَ الذَّاتِيَّةِ أَنَّكَ كُنتَ تُحِبُّ الكيمياءَ أثناءَ صِبَاكَ، حَيثُ شَعرتَ بِفُضولٍ كَبِيرٍ لاسْتِكْشَافِ أَسْرَارِ الْخلقِ وَالكونِ. ذَكَرْتَ أيضًا أَنَّكَ قَرأتَ كُلَّ مَا اسْتَطَعْتَ الحصولَ عليهِ مِنْ كُتُبِ الكيمياءِ. فَهَلْ تَمَكَّنتَ مِنْ كَشْفِ أَسْرَارِ الخلقِ بَعْدَ رِحْلَتِكَ الطَّوِيلَةِ مَعَ العِلْمِ؟» قَالَ: «أُفَضِّلُ اسْتِخْدَامَ لَفظِ الطَّبِيعَةِ بَدَلًا مِنَ الخَلقِ - عِندَ الحديثِ عَنِ الموضوعاتِ العِلْمِيَّةِ. أَنَا تَخَصَّصْتُ في تَصمِيمِ الْآلَاتِ وَالأَجْهِزَةِ، وَتَركتُ لِلآخَرِينَ مُهِمَّةَ البَحْثِ في أَسْرَارِ الْكَوْنِ وَالطَّبِيعَةِ».

قلتُ لإرنستَ: «النَّجاحُ في الحَياةِ يَتَطَلَّبُ التَّركيزَ عَلَى مَوْضُوعاتٍ مُحَدَّدَةٍ، وَبذلَ أَكْبرِ جهدٍ مُمْكِنٍ فِيهَا، لِتحقيقِ نَتَائِجَ مَلموسةٍ. مَا الَّذِي تشعُرُ أَنَّكَ أَهْمَلْتَهُ في حَيَاتِكَ الْعِلْمِيَّةِ، أَوْ بِعِبَارَةٍ أُخرَى مَا الَّذِي تَمَنَّيْتَ أَنْ تفعلَهُ، دُونَ أَنْ تَسمَحَ لَكَ ظُرُوفُ عَمَلِكَ بِهِ؟» قَالَ إِرْنِسْتُ: «هَذَا صَحِيحٌ. لَابُدَّ لِلمَرْءِ أَلَّا يُشَتِّتَ جُهودَهُ. أَنَا أُؤمنُ بِمبدَأِ التَّركيزِ، بِمعنَى أَنْ أَفعلَ شَيئًا وَاحِدًا في وَقتٍ مُحَدَّدٍ، فَإِنِ انتهيتُ مِنْهُ، انتقلتُ لِمَا بَعدَهُ. يَقِينًا يَتَمَنَّى المرءُ كَثِيرًا لَوِ استطاعَ إنجازَ عِدَّةِ أَشياءَ في وَقتٍ وَاحِدٍ. لَكِنَّ هَذَا صَعْبٌ. أَنَا تَرَبَّيتُ عَلَى حُبِّ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: العِلْمِ، وَالفَنِّ، وَالموسِيقَى. أَثْنَاءَ اشْتِغَالِي بِالْعِلْمِ، كُنْتُ دَائِمًا أُفكِّرُ في الْفَنِّ وَالموسِيقَى، وَأَتحيَّنُ الفُرصَةَ للاستمتاعِ بِمُمَارَسَتِهِمَا».

سألتُ إرنستَ: «هَلْ تَعْرِفُ العالِمَ المصريَّ محمّدَ منصورٍ؟» رَدَّ: «بِالطَّبْعِ، أعرِفُهُ جَيِّدًا. لَكِنِّي لَمْ أَعمَلْ مَعَهُ». قُلتُ: «أَلَيْسَ تُخَصُّصُهُ "التَّحَكُّمَ الْآلِيَّ" مُهِمًّا بِالنِّسْبَةِ لِعَمَلِكَ؟» قَالَ: «طَبعًا. لَكِنَّ عَلَاقَتِي كَانَتْ بِزَمِيلِهِ شَاوفلبرجَرَ. أَعْرِفُ أَنَّ البروفيسورَ منصورًا أَسَّسَ مَعْهدًا عَالَمِيًّا في جَامِعَتِنَا. لَكِنِّي لَا أَستطيعُ التَّعَاونَ مَعَ جَمِيعِ العُلَمَاءِ».

قُلتُ لإرنستَ: «أَخْبَرَنِي أَحَدُ أصدقاءِ رئيسِ مدينةِ زيورخَ - إلمارَ ليدرجربرَ - أَنَّ كورتَ ڤوريتريخَ نالَ جائزةَ نوبلَ عَلى أبحاثٍ قامَ بِهَا عَالِمٌ سويسريٌّ آخَرُ، مِنْ قَبْلِهِ!!» قَالَ مُتَعَجِّبًا: «صَدِيقٌ مُقَرَّبٌ مِنْ ليدرجربرَ يَقولُ هَذَا!! هَذَا غَيرُ صَحِيحٍ!!» قُلْتُ: «أَأَنْتَ المقصودُ؟» قَالَ: «بِالطَّبْعِ! لَقَدْ تَعَاوَنتُ مَعَ ڤويتريخَ أكثرَ مِنْ عَشرِ سَنَوَاتٍ. مَازِلتُ أقولُ لَولَا ڤويتريخُ لَمَا حَصلتُ عَلَى جَائِزَةِ نُوبلَ. وَلَوْلَايَ أَنَا لِمَا حَصلَ هُوَ عَليهَا فِيمَا بَعْدُ!» قُلتُ: «لِمَاذَا؟» قَالَ: «لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَتَاحَ لِي المجالَ لإجراءِ الأبحاثِ، وَعملِ التَّجَارِبِ».

قلتُ: «مَا رَأْيُكَ فِيمَا حَدَثَ بَيْنَ ڤويتريخَ وَإِدَارَةِ جَامِعَةِ زيورخَ الفيدراليَّةِ، عِنْدَمَا حَاوَلُوا إِجبَارَهُ عَلَى التَّقَاعُدِ؟» قَالَ: «أَنَا شَخصِيًّا أَرَى أَنَّهُ يَكْفِي عَلَى الْعَالِمِ الْبَاحِثِ أَنْ يَعْمَلَ حَتَّى سِنِّ الخَامِسَةِ وَالسِّتِّينَ. لَا يَنبغِي أَنْ ينافسَ الشُّيوخُ الشَّبَابَ. أَعتقدُ أَنَّ الحَيَاةَ مُفْعَمَةٌ بأشياءَ أخرَى جَمِيلَةٍ يُمكنُ لِلمَرْءِ أَنْ يُحَوِّلَ اهْتِمَامَهُ إِلَيْهَا بَعْدَ التَّقَاعُدِ. بِالنِّسْبَةِ لِڤويتريخَ، فَهُوَ أَرَادَ مُوَاصَلَةَ الأَبْحَاثِ. هَذَا جَيِّدٌ لَهُ. أَمَّا أَنَا، فَفَضَّلْتُ التَّقَاعُدَ، لِإِتَاحَةِ الفُرصَةِ لِشَبَابِ الْعُلَمَاءِ».

قلتُ لإرنستَ: «تقومُ الآنَ بَعضُ العَوَاصِمِ العَرَبِيَّةِ بِأَنْشِطَةٍ ثَقَافِيَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ. أَخْبَرَنِي ڤويتريخُ أَنَّ إِمَارَةَ أَبِي ظَبْيٍ وَجَّهَتْ لَهُ دَعْوَةً مَعَ تِسْعَةِ عُلَمَاءٍ آخَرِينَ، مِنْ حَامِلِي جَائِزَةِ نُوبِلَ، لِإِلْقَاءِ مُحَاضَرَاتٍ هُنَاكَ. هَلْ كُنْتَ مَعَهُمْ؟» قَالَ: «لَا. لَمْ أَتَشَرَّفْ بِزِيارَةِ أَبِي ظَبْيٍ بَعْدُ». قُلْتُ: «هَلْ أَنْتَ مُسْتَعِدٌّ لِتَلْبِيَةِ أَيِّ دَعْوَةٍ تَأْتِيكَ مِنْ عَاصِمَةٍ عَرَبِيَّةٍ، لِإِلْقَاءِ مُحَاضَرَةٍ أَوْ أَكْثَرَ هُنَاكَ؟» رَدَّ: «بِالْعَكْسِ. يُسْعِدُنِي هَذَا. لَكِنْ يَنْبَغِي التَّخطيطَ قَبْلَهَا بِوَقتٍ كَافٍ. مُشْكِلَةُ الْعَرَبِ أَنَّهُمْ غَالِبًا مَا يُوَجِّهُونَ الدَّعْوَةَ قَبلَ المناسَبَةِ بِوَقتٍ قَصيرٍ جِدًّا». قلتُ: «أَيْنَاسِبُكَ أَنْ تَستلمَ الدَّعوةَ قَبلَهَا بِشَهرَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ؟» قَالَ: «غَالِبًا مَا أُخَطِّطُ لِمُدَّةِ عَامٍ كَامِلٍ! هَذَا يَعْنِي أَنَّ الدَّعْوَةَ إِنْ وَصلَتْنِي قَبلَ المناسبةِ بِعَامٍ كَامِلٍ، يَكُونُ مِنَ الأفضلِ لِي!» قُلتُ: «يَبدُو أَنَّكَ مَشغولٌ جِدًّا. كَمْ مُحَاضَرَةً تُلقِي في الشَّهْرِ أَو السَّنَةِ؟» قَالَ: «في الْمُتَوَسِّطِ أُلقِي مُحَاضَرَةً كُلَّ أُسبوعٍ!» تَعجَّبْتُ مِنْ هَذَا النَّشَاطِ وَهَذِهِ الْحَيَوِيَّةِ: «إِذًا أنتَ دَائِمًا عَلى سفرٍ؟» قَالَ: «أَحْيَانًا تَكونُ الْمُحَاضَرَاتُ هُنَا في وَسطِ أوروبَّا. لَكِنِّي أُسَافِرُ بانتظامٍ إِلَى آسيَا وَالولاياتِ المتَّحِدَةِ الأمريكيَّةِ. عِندِي رِحْلَةٌ قَرِيبًا إِلَى كُورِيَا وَأَمْرِيكَا».

أردتُ مَعرفةَ رَأْيِ ريتشاردَ إِرنستَ في مسؤوليَّةِ العُلَمَاءِ وَالمثقَّفِينَ إِزَاءَ مَا يَحدثُ في عَالَمِنَا هَذَا مِنْ حُرُوبٍ وَمَظَالِمَ وَقَهْرٍ وَاضطهادٍ وَنَهبٍ وَاستغلالٍ. قُلتُ: «هَلْ تشعُرُ كَعَالِمٍ بِالتزامٍ أَدَبِيٍّ تجاهَ المجتمعِ، وَتُجَاهَ الإِنْسَانِيَّةِ، بِحَيْثُ تَرَى أَنَّ مِنْ وَاجِبِكَ الاعتراضَ عَلَى مَا تَرَاهُ خَطَأً في الْمجتمعِ

وَالْعَالَمِ؟» صَاحَ إرنستُ بِحَمَاسٍ مَلْحُوظٍ: «بِالطَّبْعِ لَابُدَّ مِنْ أَنْ يُعَبِّرَ الْعُلَمَاءُ عَنْ آرائهِم تُجَاهَ مَا يَحدُثُ في عالمنا هذا. أنا أقول دائمًا العالم وحده هو الّذي يستطيع التّعبير عن رأيه بحرية كاملة، بعكس السّياسيّين ورجال الأعمال». قُلتُ: «ألا توجدُ وسائلُ لإرهابِ العلماءِ في سويسرا؟» قَالَ: «وظيفتُنا هُنَا مَضمُونَةٌ إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ. لا أحدَ يستطيعُ فصلَنا من عملِنا كأساتذةٍ جامعةٍ». ثمّ نهضَ إرنستُ بنشاطٍ ملحوظٍ، وكأنّي قد لمستُ وترًا حسّاسًا لديه. توجّه إلى الكومبيوترِ. سجّلَ منه مَلَفًّا. ثمّ أحضرَ جهازَ كومبيوترٍ محمولًا، وشغّلَه، وَوضعَه أمامَنا. قالَ: «انظرْ. هذهِ محاضرةٌ ألقيتها عن الأوضاعِ المتردّيةِ في عالمِنَا اليومَ». قلتُ: «أنتَ تستخدمُ صورًا كثيرةً». قالَ: «اللّغةُ في عصرِنَا هذا صارتْ قليلةَ القيمةِ! أصبحَ النّاسُ يتعاملونَ بالصّورةِ والعينِ!»

جَلَسَ البروفيسورُ ريتشاردُ إرنستَ بجواري، واضعًا جهازَ حاسوبِه المحمولَ أمامَنا، وجعلَ يشرحَ لي فلسفتَه في الحياةِ من خلالِ صورٍ معبّرةٍ، وتعليقاتٍ موجزةٍ، وكلماتٍ لاذعةٍ.

تعجبتُ من أسلوبِ إرنستَ هذا، وتذكّرتُ البروفيسورَ محمّدَ منصورِ الّذي يميلُ مثلَ إرنستَ إلى الاقتصادِ في استخدامِ اللّغةِ، ويوظّفُ الصّورَ والرّسوماتِ في شَرحِ آرائهِ، وتَبيينِ وجهةِ نظرِهِ.

سألتُ إرنستَ عن علاقتِهِ بمدينةِ زيورخَ. كادَ يصدمني عندمَا أخبرني أنّه وُلدَ ونشأَ في مدينةِ ثينترتورَ، وأنّه يكادُ يمقتُ زيورخَ!! مشيرًا إلى ما حدثَ بينَ المدينتينِ مِنْ تنافسٍ وَصِرَاعٍ عَلَى مَرِّ التّاريخِ. سألتُهُ عن موقفِهِ من الدّينِ عمومًا، وهلْ هوَ كاثوليكيٌّ أمْ بروتستانتيٌّ. فقالَ: «أنتْ تعرفُ بالطّبعِ تسفينجلي الّذي يتباهونَ بهِ في زيورخَ؟» قلتُ: «نعم». قَالَ: «لي جدٌّ كانَ من أتباعِ تسفينجلي هَذا، وشاركَ معه في بعضِ الحروبِ ضدّ الكاثوليكِ. لكنَّ تسفينجلي قُتِلَ، وجدّي هَذا لم يُقتلْ»!!

سألتُ إرنستَ عن الموضوعاتِ الّتي تشغلُهُ اليومَ. فقالَ: «بعدَ تقاعدِي شعرتُ بانجذابٍ شديدٍ نحوَ الأديانِ الأسيويّةِ في الهندِ والصّينِ. جذبني إليهَا أنّها أديانٌ مسالمةٌ، تكادُ تخلو منَ العنفِ». ثمّ قامَ سريعًا وسحبَ بحثًا لَهُ، قدّمَهُ لي، قَائلًا: «هذا آخرُ بحثٍ لي كتبتُه عن الدِّيانَةِ البوذيّةِ». تناولتُهُ شَاكرًا، وتصفّحتُهُ سريعًا. لفتَ نظري كثرةُ المراجعِ الّتي استخدمَهَا إرنستُ في بحثِهِ هَذَا. يبدو أنّه صارَ الآنَ متخصّصًا في البوذيّةِ!!

قلتُ لإرنستَ: «مَا هِيَ أَهَمِّيَّةُ الموسيقى بالنّسبةِ لك؟» فَرَدَّ: «تعرفُ أنّ أينشتاينَ كان يحبُّ الموسيقى أيضًا. وكانَ يعزفُ على الآلةِ نفسهَا الّتي أعزفُ أنا اليومَ عليهَا، معَ الفارقِ أنّ آلتِي الآنَ أكبرُ حجمًا من الآلةِ الّتي كان أينشتاينُ يعزفُ عَليهَا!! لكنَّ الموسيقَى عمومًا هِيَ فَنٌّ راقٍ، تحتاجُ إلى مجهودٍ كبيرٍ، حتّى يتمكّنَ المرءُ من الاستمتاعِ بهَا».

سألتُ إرنستَ: «هَلْ تعرفُ نينا كورتي؟» قالَ: «ذكّرْني بِهَا! مَنْ هِيَ؟» قُلتُ: «هِيَ أَشْهَرُ راقصةِ فلامنكو سويسريّةٍ؟» قَالَ: «نعمْ، نعمْ، هي أيضًا من مدينةِ ثينترتورَ». قلتُ: «أنَا على موعدٍ معهَا الأسبوعَ القادمَ». قالَ: «لماذَا؟!» قلتُ: «فنُّ الفلامنكو عَربيُّ الأصلِ. تحكي الرّواياتُ أنّ ملكَ الكاثوليكِ دعَا بَعضَ العربيّاتِ للرّقصِ أمامَهُ في الأندلسِ، بَعْدَ هَزيمةِ العربِ هناكَ. فَلَمَّا جَاءَتِ العَربيَّاتُ، أَرَدْنَ إخبارَهُ أنّ العربَ لَمْ وَلَنْ يُهزَمُوا أبدًا. فَجاءتْ رقصةُ الفلامنكو معبّرةً عن هذهِ الرّسالةِ. راقصةُ الفلامنكو لا ترقصُ، بلْ تحاربُ، وَهِيَ تقرعُ الأرضَ بقدميهَا، وَهِيَ أيضًا لا تَبتسمُ أبدًا، ولا تتعرَّى أبدًا، ولا تعرفُ إلّا الصّرامةَ والجدَّ والكبرياءَ والقوّةَ. إنّ الفلامنكو، إن شئتَ، ليسَ رقصًا، بلْ قتالًا. ونينا كورتي هَذهِ الّتي سأقابلُهَا الأسبوعَ القادمَ هِيَ سويسريّةٌ، لَكِنَّهَا في الوَقتِ نفسِهِ روسيّةٌ وأسبانيّةُ الأصلِ. بَلْ هِيَ تُعتَبَرُ ظاهرةً غريبةً حقًّا، فَكَيْفَ تَكونُ راقصةَ فلامنكو، وَهِيَ سُويسريّةٌ؟! لَقَدْ تَعوَّدْنَا أَلَّا نَرَى هَذهِ الرَّقصةَ إِلَّا في الأندلسِ. لَكِنَّ نينا كورتي شَقَّتْ طريقَهَا، وَأَثبتتْ وجودَهَا، فصارَتْ مِنْ أشهرِ رَاقصاتِ الفَلَامنكو في الْعَالَمِ». قَالَ إرنستُ: «هَلْ يُمكنُ أَنْ تُبلغَهَا تَحيَّاتِي؟» قُلتُ: «إنْ شئتَ أن تراهَا، فأنتَ مَدْعُوٌّ بكلّ سرورٍ لتناولِ طعامِ العشاءِ معنا». لكنَّهُ اعتذرَ شاكرًا لي الدّعوةَ.

طلبتُ من إرنستَ أن ينسخَ لي محاضرتَهُ المصوّرةَ على قرصٍ مَطْغُوطٍ سي دي، لأدرسَها، وأخبرَهُ برأيي. فتفضّلَ مشكورًا بعملِ نسخةٍ من هذه المحاضرةِ لي، وسلّمني القرصَ المضغوطَ الّذي يحتوي علَى نَحْوِ مئتي صورةٍ مختلفةٍ. وأخيرًا سألتُهُ عَن قائمةِ منشوراتِهِ. فهرولَ إلى جهازِ الكومبيوترِ، وقامَ بطبعِ قائمةٍ طويلةٍ جدًّا لمنشوراتِهِ، شكرتُهُ عَليهَا.

مَرَّتِ الأيَّامُ دُونَ أنْ تتاحَ لي فرصةٌ لمواصلةِ الاتّصالِ بالبروفيسورِ ريتشاردَ إرنستَ. لكنْ في خريفِ عامِ 2006م رجاني صديقٌ في مصرَ دعوةَ بعضِ علماءِ سويسرا للمشاركةِ في مؤتمرٍ دوليٍّ عنِ «المشتركِ بينَ الثَّقَافَاتِ»، فبعثتُ برسالةٍ إلى البروفيسورِ إرنستَ أدعوهُ فيهَا للمشاركةِ في هذا المؤتمرِ. لكنَّهُ ردّ ردًّا مهذّبًا، معتذرًا عنِ الحضورِ، لأنّ موعدَ انعقادِ المؤتمرِ كانَ في أعيادِ الميلادِ الّتي يفضّلُ قضاءَهَا مع أسرتِهِ في سويسرا.

بَقِيَ أنْ أسجّلَ هُنَا حُزني عَلَى أَحْوَالِ العَرَبِ. أين كَانُوا، وأين صَارُوا؟ لا أحدَ يهتمُّ بالعلمِ في العالمِ العربيِّ الإسلاميِّ. كلُّ العلماءِ السّويسريّينَ الّذينَ تشرّفتُ بالتّعرّفِ إليهِمْ شخصيًّا ومحاورتهم، لم تكلّفْ أيُّ دولةٍ عربيّةٍ نفسَها عناءَ دعوتِهم إليهَا، والاستفادةِ من علمِهم، وإغرائِهم بالتّدريسِ في جامعاتِهَا، بدايةً مِنَ العالمِ العملاقِ محمّدِ منصورٍ، السّويسريِّ الجنسيّةِ، المصريِّ الأصلِ، مرورًا بكبيرِ علماءِ اللّاهوتِ في عصرنا هذا البروفيسور هانس كينج، وصولًا إلى أصحابِ نوبل: كورت ڤويتريخ، ورولف تسينكرناجل، وريتشارد إرنست.